

الذاتي والعرضي في النص

دراسة حول تعدد القراءات من زاوية هرمنوطيقية

علي رضا قائمي نيا

تعریف : حیدر نجف

ملخص البحث:

الموضوع الرئيسي لهذا البحث هو قضية تعدد القراءات واختلافها، ارتكازاً على التفكير بين الذاتي والعرضي في النص. ويشتمل البحث على ثلاثة خطوات تأسيسية: في الخطوة الأولى يقسم الباحث اختلاف القراءات إلى كلي وجزئي. من ثم يعمد إلى إجلاء معنى الذاتي في النص. وأخيراً يعتمد على تحليله قضية اختلاف القراءات وشرحه لمفهوم الذاتي في النص، ليستنبط أن الاختلاف الكلي للقراءات غير مقبول من الأساس.

الذاتي والعرضي في النص

دراسة حول تعدد القراءات من زاوية هرمنوطيقية

علي رضا قائمي نيا

تعریف : حیدر نجف

ملخص البحث:

الموضوع الرئيسي لهذا البحث هو قضية تعدد القراءات واختلافها، ارتكازاً على التفكير بين الذاتي والعرضي في النص. ويشتمل البحث على ثلاثة خطوات تأسيسية: في الخطوة الأولى يقسم الباحث اختلاف القراءات إلى كلي وجزئي. من ثم يعمد إلى إجلاء معنى الذاتي في النص. وأخيراً يعتمد على تحليله قضية اختلاف القراءات وشرحه لمفهوم الذاتي في النص، ليستتبط أن الاختلاف الكلي للقراءات غير مقبول من الأساس.

وفي الخطوة الثانية يناقش جانباً من طروحات الهرمنوطيقا الفلسفية عند "غادامر"، وفقاً لتفكيك الذاتي والعرضي في النص، ليدل على تعدد تأسيس هذه النظرية على قاعدة اختلاف القراءات الكلمي .

أما الخطوة الثالثة فيخصصها الباحث لآراء المفكرين الإيرانيين ، مؤكداً أن ما يطرونه ليس في الواقع غير اختلاف القراءات الكلمي، أما الاختلاف الجزئي للقراءات، وهو واقع مشهود ومعرف به، فلا يلبي مطامحهم الفكرية؛ ولذلك فما يشاع اليوم في الفضاء الفكري الإيراني تحت عنوان "اختلاف القراءات" ، هو اختلاف من السنسخ الكلمي، الذي يعد نسقاً معرفياً لا تتوفر له المسوغات الكافية.

علي رضا قائمي نيا

المحة/ العدد السادس/ شتاء/ 2003 - 1423

تعم الوسط الفكري الإيراني اليوم فكرة تعدد القراءات الدينية. وتتبدى هذه الفكرة أداة سياسية بأصول غير معرفية، قبل أن تكون أطروحة لها مرتكزاتها العلمية. وغالباً ما تطرح هذه الأفكار بصيغ تغلفها طبقات من الغموض، تسفر عادة عن نتائج جدّاً متطرفة.

وفي بحثنا هذا سنحاول:

أولاً: إزاحة الغموض عن نظرية تعدد القراءات، والإفصاح عن مغزاها.

ثانياً: تقديمها عن طريق مناقشة هرمنوطيقية حول الذاتي والعرضي في النص، والإشارة إلى المغالطات المعتمدة كأسس وأركان في هذا المضمار.

1 - ليس المراد من اختلاف القراءات⁽¹⁾ إلا اختلاف أنماط الفهم للدين. وإذا افترضنا النصوص الدينية كخارطة جغرافية، فإن قراءة الدين ستغدو تشخيص أماكن المدن والأنهار والبلدان و... إلخ، وبالتالي فهو(الدين) هذه الخارطة بتفاصيلها ورموزها المستخدمة. فقاريء النصوص الدينية كقاريء الخارطة الجغرافية، يحاول تشخيص موضع عبارة من عبارات النص، ويكشف عن مدلولها ورسالتها، ويرصد العلاقات التي تربط بين هذه العبارات. إن تمثيل النص بالخارطة سيكون مفيداً جداً حين البحث عن اختلاف القراءات. وقراءة النص تماثل قراءة الخارطة من جهة، وتختلف عنها من جهة ثانية، فنحن حينما نقرأ خارطة نحوها استجلاء أسرارها ومعرفة علاماتها ورموزها، وبالتالي تشخيص مكان كل مدينة أو بلد أو نهر. وفي قراءة النص

نسعى أيضاً لمعرفة أسراره ورموزه وتشخيص موقع العبارات والمطالب، والعلاقات التي تربط فيما بينها. قراءة الخارطة عملية يراد بها معرفة جغرافيا المدن والبلدان و... على وجه الأرض، وقراءة النص محاولة لاستكناه جغرافيا الأفكار التي يكتنزها. لكننا في هاتين القراءتين إزاء خارطتين وجغرافيتين متفاوتتين: في الخارطة الجغرافية، نشاهد الواقع الأرضي بمقاييس جد مصغرة، وبعلامات ورموز متعارف عليها، فهذه الخرائط، في واقعها، تصاوير هندسية لجغرافيا واقعية بمقاييس مصغرة، وللعلامات المثبتة عليها وظائف وأدوار مختلفة، بعضها يشير إلى الطرق الرابطة بين المدن، وبعضها الآخر يدل على مستوى الارتفاع والانخفاض مقارنة بمستوى سطح البحر و... الخ. بينما لستنا في النص حيال صورة مصغرة للواقع، وإنما يحمل النص رسالة للمتلقي، وتتناسج جوانبه المختلفة بعضها مع بعض لتوصيل هذه الرسالة وعبر عنها. ووظيفة المفسر هو أن يرسم "جغرافيا النص" ويكشف النقاب عن دور كل جزء من أجزائه، ويغور فيه ليتعرف إلى فحواه ومفاده الحقيقي. في جغرافيا النص تتضح رسالة النص والترابط بين أجزائه، وموقع كل فكرة أو جملة بشكل دقيق.

2 - بالنظر للتمثل أعلاه، بمقدورنا اجتراح تميز مهم بين نمطين من اختلاف القراءات. هذا التمييز من شأنه تقرير مصير السجال الفكري حول اختلاف القراءات. إذا عرضنا خارطة جغرافية على شخصين،

وكانـت لهـما قـراءـتان مـخـلـفتـان لـهـا، فـإـن هـذـا الـاخـتـلـاف يـتـصـور بـأـحـد

شـكـلـيـنـ:

أـ قد يـخـتـلـف الشـخـصـان فـي حـالـات خـاصـةـ. فـمـثـلاـ قد يـخـتـلـفـان حـولـ نقطـةـ معـيـنةـ وـمـا تـرـمزـ إـلـيـهـ مـنـ الـبـلـدـانـ أـوـ الـمـدنـ. وـقـدـ يـتـفـقـانـ عـلـىـ حـالـاتـ أـخـرىـ حتـىـ لوـ كـانـتـ قـلـيلـةـ، وـيـصـلـانـ إـلـىـ قـرـاءـةـ مـوـحـدةـ. هـذـا اللـونـ مـنـ اختـلـافـ القرـاءـاتـ نـسـمـيـهـ "الـاخـتـلـافـ الإـقـلـيمـيـ"ـ⁽²⁾ـ أـوـ "الـاخـتـلـافـ الـجـزـئـيـ"ـ⁽³⁾ـ وـجـلـيـ انـ محـورـ الاـخـتـلـافـ مـنـفـصـلـ عـنـ محـورـ الـاـتـفـاقـ فـيـ النـمـطـ الإـقـلـيمـيـ أـوـ الـجـزـئـيـ مـنـ الاـخـتـلـافـ القرـاءـاتـ.

بــ تـارـةـ قدـ لاـ تـجـمـعـ بـيـنـ الشـخـصـيـنـ أـيـ نقطـةـ مشـترـكةـ فـيـ قـرـاءـةـ الـخـارـطـةـ. فـهـمـاـ مـخـلـفـانـ بـشـأنـ كـلـ نقطـةـ مـنـ نقاطـ الـخـارـطـةـ وـمـحـتـويـاتـهاـ. فـيـ هـذـهـ حـالـةـ لـاـ يـكـونـ أـمـامـناـ مـحـورـاـ اـخـتـلـافـ وـاـتـفـاقـ، وـإـنـمـاـ مـحـورـ وـاحـدـ هوـ مـحـورـ اـخـتـلـافـ، إـذـ لـاـ يـجـمـعـ بـيـنـ القرـاءـتـيـنـ أـيـ قـاسـمـ مشـترـكـ، وـكـانـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـمـاـ يـتـحدـثـ عـنـ عـالـمـ غـيرـ الـعـالـمـ الـذـيـ يـتـحدـثـ عـنـ الـآـخـرـ، أـوـ انـهـمـاـ يـسـكـنـانـ كـوـكـيـنـ مـفـرـقـيـنـ. هـذـاـ النـمـطـ مـنـ الاـخـتـلـافـ القرـاءـاتـ نـسـمـيـهـ "الـاخـتـلـافـ الـعـالـمـيـ"ـ⁽⁴⁾ـ أـوـ "الـاخـتـلـافـ الـكـلـيـ"ـ⁽⁵⁾ـ.

وـفـيـ عـمـلـيـةـ قـرـاءـةـ النـصـوصـ، يـبـدـوـ هـذـانـ النـمـطـانـ مـمـكـنـيـنـ لـلـوـهـلـةـ الـأـولـىـ. فـإـلـيـ الـقـرـاءـاتـ قدـ تـخـتـلـفـ عـنـ قـرـاءـةـ أـخـرىـ اـخـتـلـافـاـ كـلـيـاـ، بـحـيثـ لـاـ يـجـمـعـ بـيـنـهـمـاـ جـامـعـ.

3 - لكل نص ديني رسالة يريد إيصالها للمخاطب كي يغير من حاله وواقعه. وقد يلقي النص رسالته هذه للمخاطب بأساليب متفاوتة؛ أحياناً بالقصة، وتارة بالظواهر الطبيعية، وحينما بلغة الأوامر والنواهي والوعد والوعيد. كل هذه الأساليب تُستخدم لجر المتلقي إلى دائرة الدين وتغييره نحو الأفضل، بعد أن يكون قد استوعب رسالة النص. وبقليل من التدبر في الآيات القرآنية - النص الإسلامي الأول - يمكننا ملاحظة هذا المعنى فيها. فمثلاً يسرد القرآن سير بعض الأنبياء بما فيها من حوادث غريبة، ولو لا إنباء الله عنها في الكتاب العزيز لظللت في مطاوي النسيان لا يعلم بها أحد ^{هذا} ذلك من إنباء الغيب نوحيه إليه وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ^{هـ}⁽⁶⁾. هذه أخبار غريبة تذاع في سياق رسالة النص، وقد ثبت تفاصيل الرسالة الرامية إلى هداية البشر في ثنايا هذه القصص ^{هـ}لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حدinya يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ^{هـ}⁽⁷⁾. فأوامر القرآن ونواهيه ووعده ووعيده ترتبط جميعها برسالة النص الرئيسة على أنحاء مختلفة.

وقد تكون الرسالة الأصلية أمراً معقداً يضم جوانب متعددة.

4 - الرسالة الأصلية للنص هي "الذاتي من النص"، وما عداه، مما لا يرتبط ارتباطاً محكماً بالرسالة الأصلية هو "العرضي في النص".

لتفترض أننا نقرأ رواية فيها عبارات وجمل مكررة، لهذه الرواية رسالة أصلية تمثل الذاتي من النص، ولا ضرورة لتكرارها في عدة مواضع. لذا يمكن الشطب على هذه العبارات المكررة. وإذا ما ورد في الرواية قبل الإفصاح عن المراد الرئيسي، استعراض للسمات الشخصية للمؤلف، فسيعد هذا الاستعراض أيضاً عرضياً بالنسبة إلى المقصود الأصلي من النص.

ملخص القول هو: إن كل ما يمت بصلة وثيقة لرسالة النص ومضمونها الرئيس يعد "ذاتياً" في النص، وكل ما لا يقترن إقتراناً ضرورياً برسالة النص فهو "عرضي" في النص. عَرَضُ النص ليس أجنبياً عليه، بيد أنه لا يؤدي دوراً في رسالته؛ فمثلاً قد تكون في النص مقدمات وتمهيدات ترمي إلى إعداد المخاطب نفسياً لاستيعاب الرسالة الأصلية، هذه المقدمات تصنف طبعاً على عرضيات النص، لكنها ليست غريبة على النص ومغزاه الأصلي⁽⁸⁾.

5 - التفريق بين الذاتي والعرضي له ثمرتان أساسيتان سوف نخسرهما إذا تنكرا لهذا التفريق. ولإيضاح هاتين التيجتين نطرح سؤالين:
الأول: كيف نعلم أن نصاً ما يختلف عن نص آخر ؟

الثاني: كيف نفرق بين فهم صحيح للنص وآخر مغلوط ؟
السؤال الأول يتصل بـ "هوية النص". إننا حينما نقرأ نصاً، سنتساءل: هل هو ذاته النص السابق الذي قرأناه أم لا ؟ إن تشخيص "هوية النص" وكونه نفس نص آخر أو سواه، مهمة تقع على عاتق الذاتي من النص. بعبارة أخرى، حينما يجد القارئ أن الرسالة الأصلية لنصين واحدة، وإن كان ثمة تباين في

الأجزاء العرضية، فحيثئذ سيحكم بأن هوية النصين هي واحدة.. وإذا وجد فارقاً بين رسالتى نصين، فيستنتاج يقيناً أنهما نصان متغايران لهما هويتان مستقلتان.

السؤال الثاني يبدو أكثر رسوحاً في مهمته التأسيسية من السؤال الأول، فكل نظرية حول اختلاف القراءات لا بد من أن تجيب عنه إجابة مقنعة. إن تفكيك الذاتي والعرضي في النص يوفر أفضل أنموذج للتفريق بين الفهم الصائب والفهم المغلوط. فالفهم الخاطئ خاطئ لأنه يبعث ذاتي النص ويخلطه. وفي المقابل، لا يفسد الفهم الصحيح ذاتي النص؛ ولذلك يغدو ذاتي النص معياراً حاسماً للفهم الصحيح. فإذا أوجد الفهم تغييراً في ذاتي النص فهو غير صائب، وإلا فهو فهم سليم⁽⁹⁾.

6 - تختلف النصوص بعضها عن بعض من حيث الذاتي والعرضي.
فالمعنى الأصلي لنص ما يختلف عن الرسالة الأصلية لنص آخر.
وطبعاً من الصعب جداً تمييز ذاتي النص عن عرضيه، وهو مهمة شاقة تستلزم جهوداً جباراً ودقة متناهية.

ولعل "رودولف بولتمان" (Rodolf Bultman)، من بين رموز الهرمنوطيقة المعاصرة، خير من سلط الأضواء على هذا الموضوع. فقد حاول بمنظقه الكلامية تحديد الذاتي والعرضي في "العهد الجديد". وقد ابتكر لأجل ذلك تصحيحاً هرمنوطيقياً خاصاً أسماه "مكافحة الأسطورة"⁽¹⁰⁾، من المناسب الإشارة إليها بإجمال.

على رضا قاسمي نيا

لمحجة/ العدد السادس/ شتاء/ 2003 - 1423

يعتقد "بولتمان" أن مخاطبـي العهد الجديد الأوائل كانت لهم رؤية كونية خاصة، صـبت رسالة العهد الجديد أو بشارته في قالبـها. ويرى أن هذه الرؤية الكونية كانت "أسطورية" تـشتمـل على أربـعة عـناـصر أساسـية:

اولاً: يـتأـلـفـ العالمـ فيـ هـذـهـ الرـؤـيـةـ الـكـوـنـيـةـ منـ ثـلـاثـ طـبـقـاتـ:ـ الجـةـ فـيـ الطـبـقـةـ الـعـلـىـ،ـ وـالـأـرـضـ فـيـ الـوـسـطـىـ،ـ وـالـجـحـيمـ فـيـ الطـبـقـةـ السـفـلـىـ.

ثـانيـاـ:ـ الـأـرـضـ مـسـرـحـ حـصـولـ الـمـعـاجـزـ التـيـ يـرـاهـاـ "ـبـولـتـمـانـ"ـ خـرـقاـ لـقـوـانـينـ الطـبـيـعـةـ وـنـقـضاـ لـقـوـادـعـ الـعـلـمـ.

ثـالـثـاـ:ـ الـقـوـىـ الـمـاـوـرـائـيـةـ تـتـدـخـلـ فـيـ حـيـاةـ الـبـشـرـ وـمـصـاـثـرـهـمـ.

رـابـعاـ:ـ يـصـطـبـعـ الـعـهـدـ الـجـدـيدـ بـطـابـعـ أـخـرـوـيـ،ـ طـارـحـاـ رسـالـةـ الإـيمـانـ بـعـالـمـ بـعـدـ عـالـمـنـاـ هـذـاـ.

يـقـولـ "ـبـولـتـمـانـ":ـ "ـهـذـهـ الرـؤـيـةـ الـكـوـنـيـةـ لـمـ تـعـدـ مـسـتـسـاغـةـ فـيـ الـعـصـرـ الـحـاضـرـ،ـ فـقـدـ أـزـاحـتـهـاـ عـنـ مـوـقـعـهـاـ رـؤـيـةـ كـوـنـيـةـ جـدـيدـةـ.ـ ذـلـكـ أـنـ عـناـصـرـ الرـؤـيـةـ الـكـوـنـيـةـ الـأـسـطـوـرـيـةـ تـتـضـارـبـ وـالـعـلـمـ الـحـدـيـثـ؛ـ وـبـالـتـالـيـ إـنـ الرـؤـيـةـ الـكـوـنـيـةـ الـأـسـطـوـرـيـةـ لـيـسـ ذـاتـيـةـ فـيـ الـعـهـدـ الـجـدـيدـ،ـ بلـ هـيـ مـنـ عـوـارـضـهـ أـوـ مـسـاحـاتـهـ الـعـرـضـيـةـ.ـ الـمـتـلـقـونـ الـأـوـاـلـىـ لـلـعـهـدـ الـجـدـيدـ كـانـواـ يـسـبـحـونـ فـيـ هـذـاـ فـضـاءـ الـعـقـيـديـ الـأـسـطـوـرـيـ،ـ وـجـاءـتـ رسـالـةـ النـصـ ضـمـنـ إـطـارـ هـذـاـ فـضـاءـ وـالـرـؤـيـةـ الـكـوـنـيـةـ.ـ أـمـاـ مـخـاطـبـوـ الـعـهـدـ الـجـدـيدـ فـيـ الـقـرـنـ الـعـشـرـينـ،ـ فـعـلـيـهـمـ بـغـيـةـ إـدـرـاكـ رسـالـةـ النـصـ أـنـ يـطـهـرـوـهـ مـنـ الـأـسـطـوـرـةـ،ـ وـيـشـدـبـوـهـ مـنـ قـشـورـهـ الـفـرـائـيـةـ،ـ لـيـسـكـنـهـوـ رـسـالـةـ الرـئـيـسـةـ وـيـصـلـوـاـ إـلـىـ الـمـسـاحـةـ الـذـاتـيـةـ فـيـهـ"ـ⁽¹¹⁾ـ.

7 - لم يجانب "بولتمان" الصواب حينما فرق بين ذاتي العهد الجديد وعرضيه. بيد ان "مكافحة الأسطورة" بدل أن تعمل كأدلة للكشف عن ذاتي النص ورسالته الأصلية، عملت كأسلوب لإلغاء النص ! إن نبذ الأساطير لم يكن السبيل الوحيد والأفضل لمعالجة التعارض بين العلم الحديث والمعتقدات المركزية في العهد الجديد، بل إن معتقدات الرؤية الكونية الأسطورية، والرؤبة الكونية الحديثة غير متعارضة في حقيقة الأمر، وإنما تصطدم هذه المعتقدات بفلسفة طبيعية معينة يتبعها "بولتمان". وهذه الفلسفة الطبيعية غير مستلة من رحم العلوم الحديثة⁽¹²⁾.

التفصيل في هذا الموضوع يتضمن مجالاً أوسع، ولكن كما لمحنا، فإن تفكيك الذاتي والعرضي صحيح في محله. هذه أهم فكرة يمكن استقاوتها والانتفاع بها من "مكافحة الأسطورة" لدى "بولتمان".

8 - "الغزالى" بدوره سعى لرسم جغرافيا النص في كتابه "جواهر القرآن". والسؤال المحوري الذي طرحته هو: أي الآيات القرآنية تتضمن الرسالة الرئيسية للقرآن ؟ فهذه الآيات هي التي تمثل ذاتيات القرآن. ويستفاد من الأحاديث أن بعض سور القرآن وأياته لها مركزية ومكانة شاحنة بين سور: "يس قلب القرآن" ، "قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن" . و" آية الكرسي سيدة القرآن" .

يستنتاج "الغزالى" من ذلك ان بعض الآيات أهم من الآيات الأخرى، ويقدم وفقاً لذلك تصنيفاً خاصاً للآيات القرآنية، ليتوغل إلى المضامين القرآنية الأعمق المدرجة في آياته الاهم⁽¹³⁾. الواقع أن التصميم الهرمنوطيفي "للغزالى" ليس إلا تميزاً بين ذاتي النص وعرضيه، ومحاولة اكتشاف الرسالة الأصلية للنص الديني.

9 - بعد تفكيك الذاتي عن العرضي في النص، ينبع السؤال: ما هو مصير الذاتي في اختلاف القراءات الكلية واختلافها الجزئي؟ ذاتي النص يتغير بنحو أساسي في اختلاف القراءات الكلية. فلو أفضت قراءة النص إلى معانٍ ورسالة معينة، ستفضي قراءة أخرى إلى رسالة مغايرة. بتعبير آخر يتحول معنى النص ورسالته بشكل كامل في الاختلاف الكلي، أما في الاختلاف الجزئي فلا يطرأ تغيير على المعنى؛ لأن التفاوتات الجزئية لا تمس رسالة النص الأصلية بأي تغيير أو تبدل.

واضح أننا نحاول في ظل تفكيك الذاتي عن العرضي دحض اختلاف القراءات الكلية، باعتبار أنه يلغى فحوى النص ورسالته الأصلية. ومثل هذا المحذور غير متصور في الاختلافات الجزئية. ومن المهم التشديد على أن دراستنا تدور حول النص الديني، والنطاق الديني يحمل للبشرية رسالة سوف يت毛主席ها وفحواها في اختلاف القراءات الكلية.

تمة للبحث نطرح موضوعين مهمين:

الأول: يمثل إشارات إلى طيف من الآراء الهرمنوطيفية الفلسفية لدى "غادamer"، يناقش من منظور الذاتي والعرضي في النص.

الثاني: نشير إلى أن دعوة تعدد القراءات في إيران يرمون إلى تكريس الاختلاف الكلي دون الجزئي. فالاختلافات الجزئية مقوله بديهية جلية، لكنها لا تكفل لدعوة التعددية غایياتهم التي يتroxون بلوغها بالاختلافات الكلية. بيد ان هذه الاخيرة لا تُستمراً وفق تفكيك الذاتي والعرضي. إن تبني الاختلاف الكلي لا يتفاوت كثيراً عن إلغاء رسالة النص، فإذا جارينا دعوات التعدديين تكون قد قتلنا رسالة النصوص ومضموناتها.

10 - ربما اتّخذت نظريتان أساسيتان من بين النظريات المعاصرة أساساً

لاختلاف القراءات:

الأولى: "الهرمنوطيقا الفلسفية"⁽¹⁴⁾.

والثانية: "تفكيكية"⁽¹⁵⁾ "جاك دريدا". ومعظم الذين نافحوا عن اختلاف القراءات، اتبعوا خطى الهرمنوطيقا الفلسفية وأراء "غادamer" على وجه الخصوص.

يزعم "غادamer" في كتاب "الحقيقة والمنهج" أن الفهم ذو طابع تاريخي أساساً. ومعنى هذا المبدأ، أن النص لا يفهم إلا إذا فهم بصورة مختلفة في كل زمان. فالبisher يفهمون النص في الأزمنة المختلفة بأشكال مختلفة حسب ظروفهم ومستوياتهم الإدراكية. وبكلمة ثانية، لا ينظر المفسر للنص إلا من زاوية ظروفه التاريخية وموقعه الخاص⁽¹⁶⁾.

ويعد "غادamer" للدلالة على تاريخية النص إلى "إعادة بناء الأحكام المسبقة والتراث"⁽¹⁷⁾. ففي الفكر الغربي، ولا سيما أفكار عصر التنوير، ساءت

سمعة التراث والأحكام المسبقة إلى أقصى حد، وأراد "غادamer" في الواقع إعادة بناء هذه التقاليد (التراث) والأحكام المسبقة ورد الاعتبار لها، وصياغة مبدأ كلي للهرمنوطيقا الفلسفية، يأخذ الأحكام المسبقة والتراث بنظر الاعتبار⁽¹⁸⁾:

الـ 11- الأحكام المسبقة كانت مفهوماً مغرياً في السلبية خلال عصر التنوير. وهي بالنسبة إلى النصوص الدينية كان لها منشأ وفق الرؤية التنويرية: الأول الإيمان الأعمى بالتعاليم الدينية (أو التراث على وجه العموم)، ونبذ العقل وعدم استخدامه. والثاني التسرع والاستعمال غير الوعي للعقل.

ولذلك، ولأجل موضوع من المواضيع، يجب أن يتحدد العقل والمنهج ضد الأحكام المسبقة والتراث. من وجهة النظر هذه تعد الأحكام المسبقة ممنوعة ومضللة. وفي المقابل، يرى "غادamer" أن هذا النحو من التعامل مع الأحكام المسبقة "أحكام مسبقة عن الأحكام المسبقة" (19).

يعتقد "غادamer" أن الفهم يرتكز دائمًا على الأحكام المسبقة، والرؤية السلبية للتنوير بخصوص الأحكام المسبقة لا مبرر لها. إننا حينما نفهم نصاً نمنح مجمله معنى على أساس التجربة الجزئية التي نمتلكها عنه؛ فمثلاً، نحدس من خلال عنوانه واسم المؤلف أنه رواية بوليسية. هذا الافتراض أو الحكم المسبق قد يتكرر، وقد يتهدّم مع تقدمنا في قراءة الكتاب. فبمزيد من المطالعة، قد يتضح لنا أنه رواية بوليسية فعلاً، وقد يتبيّن لنا غير ذلك، لكننا لا نقارب النص بدون أحكام مسبقة.

على الاطلاق. والأحكام المسبقة قد تصدق وقد تكذب في غضون عملية القراءة، وهي عوامل مساعدة على فهم النص.

ولا تنتهي آراء "غادamer" عند هذا الحد، "فلهايدغر" دراسة حول البنية المسبقة للفهم، اقتبسها "غادامر" لتطوير أفكاره عن الأحكام المسبقة. ويمكن عرض مقاصد "هايدغر" عبر كتابات "غادامر" بالنحو التالي: حينما نفسر نصاً ونبغي معرفة معانيه، نضعه أولاً على قاعدة معينة، وننظر إليه من منظار خاص، فنفهمه بشكل محدد. القاعدة المعينة يسمّيها "هايدغر" "التوافر المسبق" (20)، والمُنظار الخاص يسمّيه "رؤية مسبقة" (Vorsicht)، والشكل المحدد للفهم يسمّيه "فهم مسبقاً" (Vorgriff).

والدور الهرمنوطيفي يتذبذب دوماً بين هذه العناصر الثلاثة. فنحن نقارب النص بمعلومات قبلية هي توافرنا المسبق، وكذلك بمنظار أو زاوية نظر مسبقة، وبفهم مسبق، ثم نعود لنعيد النظر في هذه العناصر الثلاثة، لترجم تارة أخرى إلى النص، ونستمر في تذبذبنا الدوري هذا حتى نصل إلى فهم مقبول⁽²¹⁾.

يموضع "غادامر" "البنية المسبقة للفهم" تاريخياً، أي أنه لا يرى مرد هذه القبيليات والأحكام المسبقة إلى الظروف الواقع الشخصي للمفسر، وإنما تنبثق عن تاريخ النص والتراث الذي يسوده. فهذه القبيليات نمت وازدهرت على امتداد تاريخ النص وداخل التراث. وللتمثيل، فإن فهمنا لعمل أدبي ك "گلستان" لسعدي الشيرازي، إنما هو فهم تطور عبر التاريخ، ونحن نفهمه للوهلة الأولى كما كان

يفهمه الأوائل. إن القبيليات التي نستعين بها لفهمه متأتية من تاريخ فهم "كلستان". وإذا أردنا رفض فهم الماضين، فسنستعين أيضاً بقبيليات مستقاة من التاريخ. إذن، يرى "غادamer" أن المعرفة التي تتوافر عليها بشأن موضوع ما ليست من نتاج الفرد أو المجتمع تحديداً، فهي من إنجازات التاريخ أيضاً. ويشير إلى ذلك بمصطلح "تأثير التاريخ" (*Wirkungsgeschichte*)، ويريد به أن التراث ذو سطوة هائلة على المفسر، وهذه السلطة مؤثرة حتى في إقصاء القبيليات أو مباركتها⁽²²⁾.

11 - حسب تاريخية الفهم، ليس بوسعنا الوقوف خارج التاريخ والوصول إلى معرفة عينية⁽²³⁾. وإنما نقف دوماً على قاعدة معينة، ومعرفتنا متاثرة طبعاً بهذه القاعدة ومتسقة مع طبيعتها وخصوصياتها⁽²⁴⁾.

بهذا يقدم "غادامر" أنموذجاً محدداً للفهم يتسم بالحوار والتبادل. وال الحوار الحقيقي هو الذي ينهمك فيه كل واحد من المتحاورين في الموضوع ويصل بشأنه إلى حقيقة. وثمرة هذا الحوار هي الاتفاق⁽²⁵⁾ واستيعاب كل واحد من أطراف الحوار لحقيقة الطرف الآخر. فكما نتعلم من الآخرين حقائق وقضايا معينة عند محاورتهم، نتعلم أيضاً حقائق وأموراً عند محاورة النص. وحينما نحاول فهم نص من النصوص، نقله إلى عالمنا وظروفنا الخاصة لنفتسل عن معانيه. فعملية الفهم تشبه حواراً نصل من خلاله إلى حقائق جديدة تترك بصماتها على قبيلاتنا. وكما أسلفنا، فإن حصيلة هذا الحوار هي الاتفاق. إن ثمرة الحوار ليست بالضرورة

لمصلحة قبليتنا، ولا لمصلحة الأحكام المسبقة المتولدة عن التراث، وإنما هي اتفاق يتبرعم في تربة الحوار الذي يضارب كل المعلومات والمعطيات المشاركة، فتأثر وتتغير جميعها بهذه المضاربة⁽²⁶⁾.

مناقشة آراء غادamer:

تطلب مناقشة الهرمنوطيقا الفلسفية فرصة واسعة. وفي هذا المقام لا يسعنا إلا طرح ثلاثة استفهامات حول الآراء التي استعرضناها:

- 1- هل يمكن تأسيس اختلاف القراءات الكلية على دعامتين الهرمنوطيقا الفلسفية "غادامر"، واعتبارها حجر الزاوية لاختلاف كلي في قراءات الدين؟
- 2- هل يمكن، وفقاً لهذه النظرية، فرز القراءات والأفهام الصائبة عن غير الصائبة؟
- 3- ما هي تأثيرات التمييز بين الذاتي والعرضي من النص على الهرمنوطيقا الفلسفية؟

الإجابة عن السؤال الأول: هي أن "غادامر" يؤكّد إمكانية الفهم داخل نطاق التراث. فإذا بلغ المفسر فهماً للنص مساوياً لفهم الذين سبقوه، وانتهى إلى نتيجة منسجمة والتراث، فإنه انطلق في مشروعه من قبليات تراثية؛ ليصل في نهاية المطاف إلى هذه النتائج. كذلك إذا وصل مفسر إلى فهم للنص معارض تماماً لفهم السلف، وتمحضت قراءته عن نتائج منافرة تماماً للتراث، فإنه انطلق أيضاً من قبليات تنسب إلى التراث؛ ليتهي إلى ما انتهى إليه من نتائج؛ وبالتالي، فإن أي

موقف يتخذ المفسر، إنما يتخذه داخل إطار التراث؛ بمعنى أنه لا يستطيع الخروج من مضمار التراث. إن اختلاف القراءات الكلية بمعنى أن يتجاهل المفسر التراث كلياً ويتهي إلى قراءة متحركة تماماً من التراث، أمر متعدد. فالقاريء يقارب النص ويحاوره دوماً من أفق أو منظار خاص. وهذا الأفق له تعاطيه مع القبيليات والأحكام المسقبة التي أنتجها التراث، فهو أفق تكون في رحم التراث.

وفي الهرمنوطيقا الفلسفية "غادamer" عناصر تتمحض عن نتائج متناقضة طبعاً، فهو من جهة يعتبر الفهم متأثراً بالتراث، ويرى الفهم الفارغ من قبليات التراث متعدراً. ومن جهة ثانية يؤسس العلاقة بين النص والمتلقي على أنموذج الحوار. فإلى أين سيستمر هذا الحوار؟ ألا يفضي الحوار إلى التحرر من قبليات التراث؟ وإذا كان المفسر يبارك التراث حقاً، فكيف سيغيره أثناء عملية الحوار؟ أنموذج الحوار يجعل اختلاف القراءات الكلية ممكناً، غير أن تأثيرات التراث تلغى هذه الإمكانية⁽²⁷⁾.

الإجابة عن السؤال الثاني: أسلفنا إن أبرز معطيات تفكيك الذاتي عن العرضي في النص، هو تميز أنماط الفهم الصحيحة السقيمة. والذاهبون إلى اختلاف القراءات يواجهون مشكلة عدم القدرة على التفريق بين الفهم السليم والفهم السقيم. وهذا ما تواجهه هرمنوطيقا "غادamer" الفلسفية أيضاً.

إذا كانت قبليات المفسر وأحكامه المسقبة ذات دور أساس في كل فهم، فكيف يتسمى فرز الأفهام الصائبة عن المغلوطة؟ في معرض الإجابة، يكتفي "غادamer" بالقول: إن المفسر يخوض وحدة وانسجاماً داخلياً، سوف يتوكأ عليه

القارئ تدريجياً ليقفز منه إلى حقيقة النص⁽²⁸⁾. ولكن لا ندرى على وجه التحديد كيف تساعد هذه الهندسة المفسر على التمييز بين الصحيح وغير الصحيح من القراءات، وتحميء من القبيليات والأحكام المسبقة غير القوية؟⁽²⁹⁾

قال فريق من الباحثين في معرض تقويم أفكار "غادamer": إنه متوفاً أكثر من اللازم، فحسب نظرياته يقترب الفهم بال توفيق دائماً. وقد أسلب "بورغن هابرماس"⁽³⁰⁾ في مناقشة هذه الثغرة الهرمنوطيقية لدى "غادامر"⁽³¹⁾.

وفي الإجابة عن السؤال الثالث نقول: إن ذاتي النص هو العامل الرئيس الذي يفصل بين الفهم الصحيح والفهم الخاطئ. وحتى لو تواضعنا على كون الحوار قناة لفهم النص، فإن الحقيقة التي سيسفر عنها الحوار هي ذاتي من النص، أو الرسالة الأصلية للنص.

ففي حدود ذاتيات النص، ليس بمستطاع المفسر فرض قبيلاته وتصوراته المسبقة. وطبعاً من المتوقع جداً أن لا يبلغ المفسر ذاتي النص، وينزلق إلى أخطاء وهفوات في عملية التفسير، إلا أن ملاك أخطائه وهفواته هو عدم قبضه على ذاتي النص، وانحرافه عن رسالته الأصلية.

إشكالية تعدد القراءات في إيران:

لتحنا إلى أن ما يطرح اليوم في إيران، تحت لافتة تعدد القراءات وتبنيها، هو في حقيقته اختلاف في القراءات من النوع الكلي (العالمي). فاختلاف القراءات الجزئي ظاهرة بدائية ومفروغ منها، والجميع يسلم بوجود اختلافات في التصورات

والأفكار الدينية. وعادة ما يتسلل أنصار تعدد القراءات بهذه الظاهرة البيئية ليؤكدوا أنها تصدق نظرية اختلاف القراءات وتدعها. وقد يستعرضون تباينات علماء الدين في آرائهم على امتداد التاريخ، بل يستشهدون أحياناً بتغيير عالم واحد لتصوراته طوال مسيره الفكري. وهذا طبعاً مما لا ينكر، وهو دليل على اختلاف جزئي في القراءات، وهو لا يعني بحال من الأحوال إمكانية أو صحة الاختلاف الكلي. وبعبارة أبسط : لا تدل حالات الاختلاف المحدودة على أن العلماء مختلفون في كل شيء. ومع ذلك ينبغي النظر في الشواهد والقرائن التي يعتمدها المنادون بتنوع القراءات.

1 - بعض أنصار هذه النظرية يؤكدون، في معرض تفسيرهم لسر الاختلاف بين القراءات، أن ليس ثمة فهم ثابت للدين، وجميع الأفهام متتحوله. وهم يسحبون هذا المبدأ حتى على ضروريات الدين؛ إلا أنهم لا يقتصرؤنه على حدود معينة، وإنما يطلقون له العنوان ليعلنو أن كل مساحات الدين تقبل التحول والتغيير. والحال أنه طبقاً للتباين بين الذاتي والعرضي، لا يقبل ذاتي النص القراءات المتعددة، على العكس من عرضي النص الذي قد تقع بشأنه العديد من الاختلافات.

2 - فريق آخر قال في تفسيره لمغزى اختلاف القراءات: إن للقبليات دوراً في كل فهم، بل إن فهم النص غير ممكن من دون قبليات. وجليلي أن هذا الفريق يحاول ببعض القواعد المقتبسة عن هرمنوطيكا "غادامر" الفلسفية، البرهنة على اختلاف القراءات. فتأثير القبليات في جميع

القراءات ينتج عنه تباين القراءات. وطبعاً أشرنا إلى وجود تضارب وعدم انسجام داخلي بين بعض عناصر الهرمنوطيقا الفلسفية. فمن ناحية، ليس بمقدور المفسر نبذ التراث نبدأ كلياً، واختلاف القراءات الكلي يعني التخلص التام عن التراث، حالة متعددة. ومن ناحية أخرى، يطلق أنموذج الحوار لتدعيم قراءة النص، فعلى أساس هذا الأنماذج يباح للمفسر بتحو تدريجي الابتعاد عن التراث في فهم النص. وعلى هذا المنوال يظهر إلى السطح شيئاً فشيئاً ما نسميه الاختلاف الكلي في القراءات.

3 - يستخدم دعاة هذه النظرية اختلاف القراءات دليلاً أو مسوغاً لنظريتهم. فحينما يدور النقاش حول التعددية الدينية، ويقال إنها غير مترابطة مع الفكر الإسلامي، باعتبار أن الرؤية الإسلامية لا تذهب إلى صحة الأديان الأخرى، ولا تعدّها حقاً مبرئه للذمة، يردّون بالقول إن هذه إحدى قراءات الإسلام، تلك التي تشطب بقية الأديان وثمة قراءات أخرى غير القراءة الرسمية للدين. ويستخدمون الأسلوب ذاته لمناقشة إشكاليات أخرى، كالعلاقة بين الدين والسياسة والعنف و ... إلخ.

وغمي عن القول: إنهم إذا قصدوا الاختلاف الجزئي للقراءات، فلن يؤلف هذا دليلاً على متبنياتهم؛ لأنهم في هذه الحالة لن يستطيعوا أكثر من تأكيد أن رؤيتهم تختلف عن رؤيتنا. أما في مراحل لاحقة، فعليهم إقامة الأدلة والبراهين على سلامية رؤيتهم وصحة قراءتهم. فممحض وجود اختلاف في القراءات لا يثبت

نظريتهم. أما إذا طرحا اختلاف القراءات كلياً فلن يكونوا بحاجة إلى دليل آخر. ففي هذه الصياغة تختلف القراءتان كلياً إحداهما عن الأخرى، حتى يغدو الاختلاف هو الأصل الطبيعي، فإذا ارتفع الاختلاف وحصل التوافق على شيء كان ذلك مثاراً للدهشة.

خاتمة:

وفي ختام هذا البحث نعود لنشير إلى أبرز النقاط المطروحة فيه:

- 1 - ينقسم اختلاف القراءات إلى كلي وجزئي، في الاختلاف الكلي لا يجمع بين القراءات أي قاسم مشترك، بينما توجد نقاط مشتركة بين القراءات المختلفة جزئياً.
- 2 - تتضمن النصوص الدينية رسالة أصلية هي الجزء الذاتي في النص، أما الأجزاء الأخرى فتعتبر عرضية.
- 3 - حسب الفرز بين ذاتي النص وعرضيه، لا يعود اختلاف القراءات الكلي مستساغاً، باعتبار أنه يلغى نواة النص ورسالته الجوهرية، ما يفيد بالنسبة إلى النصوص الدينية، التذكر لفحوى النص والخروج من الدين.
- 4 - ما يطرح في إيران اليوم تحت عنوان "تعدد القراءات واختلافها"، هو من سُنْنَة الاختلاف الكلي، وهو أطروحة مرفوضة للأسباب التي مر ذكرها.

المواهش:

Readings	-1
Local diversity of readings	-2
Partial diversity of readings	-3
Glopal diversity of readings	-4
Universal diversity of readings	-5
سورة يوسف: الآية: 102.	-6
سورة يوسف: الآية .111	-7
حول تفكيك ذات النص وعرضيه راجع.	-8
Gracia Jorge J.E,A Theory of textuality: the Logic and Epistemology, PP.110- 111, state University, New york (1995). Ibid. pp.127- 141. -9 Domythology. -10	
Bultman Rudolf, New Testament and my theology , pp. 1-45&95- 135, Fortress Press (1984).	-11
Riberts Roberts C; Rudolf - حول نقد «مكافحة الاسطورة» راجع: 12	
Bultmann's theology, pp. 125- 217, United states of America(1976).	
الغزالى، أبو حامد محمد بن محمد: جواهر القرآن، ص 37 -38 ، دار الآفاق الجديدة، الطبعة الخامسة، بيروت، لبنان، 1403هـ/1983م.	-13
Philosophical hermenutics. -14	
Deconstruction. -15	
Gadamer Hans- Georg; Turth and method, 2ed , p.309, tranby -16	
Joel Weinsheimer and Danald G.marshall, continuum, New York. Vehalilitation of prejudice and tradition. -17	
تحدث عن هذا غادامر في فصل من كتابه: «الحقيقة والمنهج» بعنوان: «تطوير تاریخانية الفهم الى	-18
Ibid; pp .265 -300 - حيث جعلها مبدأ هرمنوطيقاً» راجع 19	
Ibid; pp.270. -19	
Fore – Structure of understanding. -20	
Ibid; pp.265- 271. -21	
Ibid; pp.300- 307. -22	
Objective knowledge. -23	

- 24 - يساوي غادamer بين الفهم التأويلي والمعرفة الأخلاقية، أو بين الفهم والتروبيف، ليوضح أهمية السياق في عملية الفهم، وهذا ما لم نطرق إليه في دراستنا هذه، لمزيد من الاطلاع راجع: Ibid; pp.312.

324.

Agreement. - 25

Ibid; pp.383- 389. - 26

- 27 - الجمع بين حوارية الفهم وتأثره بالتراث، من الثغرات البارزة في هرمنوطيقا غادامر، وقد أسلب الباحثون في مناقشتها. ولا يفوتنا أن هذه الهرمنوطيقا تعانى من معضلات أخرى كالاتفاق الداخلى، والنسبية وغير ذلك مما لا يتسع له مجال البحث.

- 28 - يشير غادامر إلى هذه النقطة بمصطلح «توقع الكمال» (Volkommenheit)، ويقصد به أن المفسر يجب أن يفترض للنص كمالاً ونقطة نهاية. من هذه الزاوية يتمتع النص بانسجام داخلي ويتضمن حقيقة يبلغها المفسر عن طريق الحوار.

Warnke GeorginaGaeamer: - 29 - لندن إنكار غادامر وشرحها راجع: Hetmeneutics, tradition and Reason, pp. 82- 91, polity press (1994). Jurgen Habermas. - 30

Jeanrond Werner G; Text and Interpretation as Categories - 31
of theological thinking, trans. By Thomas J. Wilson. Pp. 22- 26. Crossroad,
New York (1988).